قصة ذي القرنين ويأجوج ومأجوج وقيام الساعة

قال تعالى (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (90) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98)

تنتقل الآياتُ لتسردَ القصةَ الرابعة؛ قصةَ التمكينِ لِمَلِكٍ مسلمٍ طوَّقَ الأرضَ عدلًا، ففتح اللهُ به البلاد، وأخَذَّ لعزّتِهِ رقابَ العباد، مُخضعًا مُلكَهُ لشرعِ الله وسُلطانه. وإذا كانت هذه الخاتمةُ قد جاءتْ مَثلًا سائِرًا لتمكينِ اللهِ لعباده في الأرض، فإنَّ فاتحةَ السورةِ بجلالِ قصةِ "أصحاب الكهف" قد جسَّدتْ واقعَ المستضعفينَ في الأرض المعاكسَ له تمامًا.

وما بين فجرِ الاستضعافِ وشمسِ التمكين، تتبدّى قصتانِ هاديتان؛ قصةُ "صاحبِ الجنتين" الذي فُتنَ بزُخرفِ الدنيا وغَرّته الأسبابُ المادية، فاستكبرَ في الأرضِ ولم يَعقِد على اللهِ رجاءه، مبخسًا مقامَ المشيئةِ الإلهية.. وقصةُ "موسى والخضر" في طلبِ العلمِ والتماسِ الحكمة.

لتلتئمَ هذه القصصُ الأربعُ في عِقدٍ فريد، واصفةً رحلةَ السالكِ المهتدي من مضايقِ الاستضعافِ إلى آفاقِ التمكين، شريطةَ أن ينجو من فتنِ الدنيا المادية، ويَتَسلّحَ بنورِ العلمِ واليقين.«

وقد جاء ذكر قصة ذي القرنين إجابةً على أسئلة أهل الكتاب والمشركين للرسول ﷺ لاختبار نبوته، حيث افتتحها القرآن بقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ وتتمثل هوية شخصيته في أنه ملك عادل وعبد صالح مكن الله له في الأرض، طاف مشارق الأرض ومغاربها، واختلف العلماء في سبب تسميته؛ فقيل لأنه بلغ قرني الشمس (المشرق والمغرب)، وقيل غير ذلك، ولم يكن ملكه مجرد سيطرة عسكرية، بل كان تمكيناً قائماً على المعرفة، والعدل، واستخدام العلم والهندسة لإعمار الأرض ونصرة المستضعفين ، وتتلخص قصته في ثلاث رحلات تاريخية كبرى؛ بدأت بالتوجه نحو مغرب الشمس، ثم مشرقها، وانتهت برحلته بين السدّين حيث شيّد أعظم حصن هندسي لحماية البشرية من إفساد يأجوج ومأجوج ، وهكذا أنقذ البشرية.

قوله تعالى (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا) (83) جاء سؤال أهل الكتاب لرسول الله ﷺ عن ذي القرنين من باب التعسف والامتحان، والاستطراد في تتبع أخبار الغابرين؛ بغية إعجازه ﷺ وإيقاعه في الحرج. بيد أن الإرادة الإلهية أبت إلا أن تجيبهم، لا نزولًا عند رغبتهم المعنتة، بل لما في طيات هذه القصة من مصالح وهدايات للأمة. وفي هذا السياق، يقتنص السياق القرآني الفرصة ليقلب المحنة إلى منحة، فيأمر نبيَّه بأن يجيبهم بوحي يوحى، مبينًا أن ذًا القرنين عبدٌ مكن الله له في الأرض.

وقد وجّه الإمام ابن عاشور هذا المعنى بقوله ("**وقد أذن الله لرسوله أن يبيّن من تفاصيلها ما يكون موضعاً للعبرة، ومثاراً للتأمل في شؤون الصلاح والعدل**، وعجيب صنع الله في تقلب أحوال الخلق .ولم يتجاوز القرآن في حديثه عن هذا الرجل ذِكر لقبه الذي اشتهر به، فأعرض عن تعيين اسمه، أو تحديد بلاده وقومه؛ إذ إن هذه التفاصيل تقع في شرفات التاريخ ومصنفات القصص، وليست من المقاصد الأسمى للقرآن الكريم. لذلك، اقتصر البيان الإلهي على ما يورث الأمة عبرةً حكيمة، أو يرسخ فيها قيمة خلقية، وفي هذا المعنى يقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً﴾. فالمقصد الأعلى والغاية المبتغاة هي الاعتبار والادكار، لا التزيّد في سرد تفاصيل تاريخية لا تنبني عليها هداية".)[1].

وفي قوله : (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) يفتتح الحق سبحانه مسيرة هذا العبد الصالح ببيان أصل تمكينه؛ ويشير الإمام الجزائري –رحمه الله– إلى **فلسفة التمكين وسنة الأخذ بالأسباب** بقوله :(هذه بداية الحديث عنه فأخبر تعالى أنهُ مَكَّن في الأرض بالملك والسلطان، أعطاه من كل شيء يحتاج إليه في فتح الأرض ونشر العدل والخير سبباً فيها يوصله إلى ذلك) [2].

ومن هذا التقرير الإلهي تتجلى للمتدبر **سنة الله الجارية في استخلاف عباده وتمكينهم**، وهي سنة محكومة بالحقائق التالية:–

- **التزام الشرائط** :إن الله سبحانه لا يورث عباده الصالحين الأرض إلا إذا التمسوا شرائط التمكين، وأخذوا بآلياته المتاحة. إن الوراثة الإلهية للأرض لا تتنزل على العباد الصالحين هبةً معطلة، بل هي ثمرة مرتهنة بالتماس شرائط التمكين، والأخذ بآلياته المتاحة في واقع الحياة.
- **بذل الوسع لا إدراك الغاية** :لا يشترط في العباد إحاطة الأسباب كلها؛ فذلك خارج عن طوق البشر، وإنما الواجب عليهم بذل الجهد، واستفراغ الوسع، والتوجه بالدعاء إلى مسبب الأسباب.
- **العلم بأن الفاعلية من الله وحده** :إن الأسباب في ذاتها عقيمة لا تثمر إلا إذا أودع الله فيها فاعليتها؛ فالله قادر على تمكين ذي القرنين بكلمة "كن"، لكنه أراد تعليم البشرية أن إعمال الأسباب والسعي فيها هو في ذاته عبادة وقربة، وتجسيد عملي لقوله تعالى(**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**) فتقديم العبادة على الاستعانة يؤكد أن نيل المعونة الإلهية مشروط بوفاء العبد بعبوديته، وسلوكه الطريق الموصل إلى مرضاة الله عز وجل.

---

[1]) التحرير والتنوير ج 15 ص 121
2) أبو بكر جابر بن موسى الجزائري أيسر التفاسير ج2 ص 397

وفي قوله تعالى (وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) **يستبين ماهية السبب** بأثر منير عن ابن عباس رضي الله عنهما إذ قال : "علماً"[3] ، وهو ما أيده ابن جزي بقوله :"أي علماً وفهماً، يتوصل به إلى معرفة الأشياء، والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو غير ذلك".[4] فالسبب الحقيقي يبدأ من وعي العقل وفقه الواقع، لتنطلق بعده القدرة المادية.

ثم ترسم الآيات معالم الحركة الفاعلة لهذا الملك العادل؛ فلم يكن ملكًا مستكينًا في قصره، بل كان دائم الحركة والجهاد، يضرب في الأرض يمنة ويسرة، ويجوب آفاقها شرقًا وغربًا. وكأنه بذلك قد استوعب كل سبيل متاح، وطرق كل باب مشروع، ليضرب للأمة أروع الأمثلة في السعي الدائب لبسط العدل، وإعلاء كلمة الحق في أصقاع المعمورة.

ومن الأسباب التي حققت له التمكين فضلا عن العلم النافع وقوة القيادة الرشيدة ، معاونة الشعب له ، وهو ما استبان من تفاصيل القصة في بناء السد وقيادة الشعب في ذلك ، فهو بدونهم عاجز وهم بدونه أعجز ، وكلاهما بمعاونة بعضهما البعض يعينهم الله على ذلك .

من هنا ندرك أن **الأخذ بالأسباب هو سنة الأنبياء والصالحين، والسبيل الشرعي للتمكين في الأرض؛ مع ضرورة عدم تعليق قلوبنا بالنتائج ذاتها** .فالله سبحانه هو الذي يربط النتائج بأسبابها ويُجريها بمشيئته، وليست الأسباب هي التي تخلق نتائجها بذاتها. لذلك، يتجلى تمام العبودية في أن نعمل لله، ونأخذ بالأسباب امتثالاً لأمره، ثم نتوكل عليه بقلوبنا متبرئين من حولنا وقوتنا، ونرضى بعد ذلك بقضائه وقدره، سواء تحققت غاياتنا الدنيوية أم لم تتحقق.

في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ دلالةٌ قاطعةٌ على أنَّ المكلفَ مأمورٌ بالسَّعي والعمل، ومطالبٌ بامتثال الأسباب المتاحة والشرعية التي جعلها الله أمارةً على المسبَّبات، دون أن يكونَ مرتهنًا بتحقيق النَّتائج أو ضامنًا لثمراتها.

فالمسؤولية الإنسانية تقف عند حدود بذل الجهد واستفراغ الوسع، في حين ينفرد الحق سبحانه وتعالى بملكوت النتائج وتدبير العواقب. ويتجلّى هذا الأصل الأصيل في قصة الخليل إبراهيم –عليه السلام– حين أُمِر بالآذان في قفار الصحراء، فقيل له: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

وقد ساق الحافظ ابن عباس –رضي الله عنهما– في بيان هذا المشهد مأثرةً جليلة؛ إذ قال: «لما فرغ إبراهيمُ من بناء البيت قال: ربِّ قد فرغت، فقال: (أذِّن في الناس بالحج)، قال: ربِّ وما يبلغ صوتي؟ قال: أذِّن وعليَّ البلاغ، قال: ربِّ كيف أقول؟ قال: قل: يا أيها الناس، كُتب عليكم الحج؛ حج البيت العتيق، فسمعه مَن بين السماء والأرض، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون؟!).

ومِن مِشكاة هذه الهداية ندرك اليقين الآتي:–

- **سُنَّة الأنبياء والتمكين** :إنَّ الأخذ بالأسباب هو ديدن الأنبياء، ونهج الصالحين، والسبيل الأوحد للتمكين الاستخلافي في الأرض.
- **الفصل بين السبب والنتيجة** :لا ينبغي للمؤمن أن يربط رغبته بالنتائج الدنيوية، فالأسباب لا تخلق مسبَّباتها بذاتها، بل الله هو الذي يرتّب الثمار عليها بمشيئته وحكمته.

---

[3]) الدر المنثور ج6 ص 413
[4]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 964

- **حقيقة التوكل** :إن مقتضى العبودية الحقة أن نعمل لله سبحانه، ونتوكل عليه بقلوبٍ تبرأ من حولها وقوتها، وتَكِل عواقب الأمور إلى بارئها.
- **الرضا بالقضاء** :يتوجّب على الساعي أن يستقبل أقدار الله برضا تام ونفس مطمئنة، سواء تكلّلت جهوده بالنجاح المشهود، أم حالت المقادير دون تحقيق مأربه؛ فالخير كل الخير فيما اختاره الله.

قوله (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ) أي أبعد جهة تغرب عندها الشمس ، وهذه العين الحمئة هي مكان تدفق البراكين ، وقد اكتشف العلماء أن هذه المنطقة هي أقصى منطقة في الغرب في جزر هاواي بأمريكا ، والغريب أن داخل هذه العين الحمئة يوجد معها ماء .

يقول الدكتور الكحيل (يمكن أن نقترح بأن عبارة (مَغْرِبَ الشَّمْسِ) تعني أبعد نقطة على اليابسة تغرب عليها الشمس.. وهي جزر الهاواي، فإذا كان هذا التفسير صحيحاً فإن القرآن يكون بذلك قد سبق العلماء لاكتشاف تلك المناطق البعيدة والتي لم تكتشف إلا في العصر الحديث)[5].



هناك فتحة نشطة في جزر هاواي تدعى Halemaumau تتدفق منها الحمم المنصهرة باستمرار خلال النهار والليل، ولكن خلال النهار نشاهد الدخان فقط..بعد غروب الشمس تبدأ هذه الفتحة النشطة بالتلون حيث يتلون الدخان المتدفق بلون الشمس، وتتضح الألوان أكثر عند مغيب الشمس تماماً أي عند الغسق.. فتظهر وكأنها عين ملتهبة.

[5] (https://www.kaheel7.com/ar/index.php/2012-12-04-18-20-16/1968-2016-09-05-15-26-58




North Pacific
Ocean
أقصى الغرب
South Pacific
Ocean

قوله (وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا) (88) وهؤلاء هم أهل المغرب ، لم يكونوا على الإسلام ، ولم يقيموا العدل على أرضهم ، فاستحقوا أي يُحكم على الظالمين منهم بالعذاب ، وعلى المحسنين منهم بالإحسان .

قال ابن كثير (كان كلما مرّ بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل، فإن أطاعوه –إلى العدل وليس الإسلام فلا يكره أحد في دخوله – وإلا أذلهم وأرغم آنافهم، واستباح أموالهم، وأمتعتهم –كغنيمة حرب –، واستخدم من كل أمة –آمنت معه – ما يستعين به مع جيوشه على أهل الإقليم المتاخم لهم)[6] .

وابن كثير وإن روى هذه الآحداث عن بني إسرائيل ، فإن في السنة النبوية ما يؤكد صحتها ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ **(عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ)**[7] ، وفي رواية (وهم كارهون)[8]، أي أنهم كانوا أعداءا للمسلمين ثم أسرهم المسلمين في سلاسل ، فرأوا أخلاقهم ومعاملتهم الحسنة فدخلوا الإسلام ، فكان الأسر سبب هذا الفضل عليهم ، **وهذا يدل على تدبير الله تعالى وقدره الكوني الذي يكون دائما رحمة لعباده المؤمنين** ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ اسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَضْحَكَكَ قَالَ **قَوْمٌ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ مُقَرَّنِينَ فِي السَّلَاسِلِ)**[9]

وفي رواية (قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: **قوم من العجم يسبيهم المجاهدون فيدخلونهم الإسلام**"[10].

قال سيد قطب (هذا هو دستور الحكم الصالح ، فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم ، والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء . . وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسناً ، ومكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً ؛ ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة . . عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج . أما حين يضطرب ميزان الحكم ، فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون...!)[11] .

قوله (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) (89) أي **استمر في اتباع الأسباب** الموصلة للنصر والتمكين ، فالمضي في طريق **الجهاد** في سبيل الله هو **سبب التمكين** في الأرض

يقول حسن البنا (**ولا تحيا الدعوة إلا بالجهاد**، وبقدر سمو الدعوة وسعة أفقها تكون عظمة الجهاد في سبيلها، وضخامة الثمن الذي يطلب لتأييدها، وجزالة الثواب للعاملين "**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ**" ، " إن ميدان القول غير ميدان الخيال، وميدان العمل غير ميدان القول، وميدان الجهاد غير ميدان العمل، **وميدان الجهاد الحق غير ميدان الجهاد الخاطئ** "،" إن رجل القول غير رجل العمل، ورجل العمل غير رجل الجهاد، **ورجل الجهاد فقط غير رجل الجهاد المنتج الحكيم الذي يؤدي إلى أعظم الربح بأقل التضحيات** "[12].

---

[6]) تفسير ابن كثير ج5 ص 193
[7]) رواه البخاري ج10 ص 200 رقم 2788
[8]) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج8 ص 283 رقم 8103 ، وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 743 رقم 7430
[9]) رواه أحمد ج45 ص 173 رقم 21178 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة مختصرة ج7 ص 75 رقم 2874
[10]) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج8 ص 283 رقم 8102
[11]) في ظلال القرآن ج5 ص 79
[12]) للمزيد اقرأ دور الجهاد في فكر البنا للدكتور عبد الله فرج الله - مدونات : https://www.ajnet.me/blogs/2016/12/20

قوله (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا)(90) أي سار في الجهة المعاكسة لمغرب الشمس ، حيث ذهب لمطلعها ، وفي ذلك كناية على أنه جاب الأرض من أولها لآخرها ، وهكذا كان صحابة رسول الله ﷺ انطلقوا بعد وفاته إلى ربوع الأرض ففتحوا مصر وشمال أفريقيا وبلاد السند والهند ، ودفنوا فيها .

وفي تعريف مطلع الأرض ، قال الطبري (هي أرض لا جبل فيها ولا شجر، ولا تحتمل بناء ، فيسكنوا البيوت، وإنما يغورون في المياه أو يسربون في الأسراب)[13]

روي عن قتادة قال (بلغنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليهم بناء، فكانوا يدخلون في أسراب لهم إذا طلعت الشمس، حتى تزول عنهم، ثم يخرجون إلى معايشهم) [14] .

يقول الدكتور محمد غلوش (والأرض التي بتلك المواصفات هي **أرض جليدية** ، أي يغطيها الجليد صيفا وشتاء ، ولكن في الصيف تكون طبقة الجليد رقيقه جدا ولذلك لاتسمح طبيعة هذه المنطقة بإقامة أي مباني فأي مباني تقام فإنها تغطس وتغرق في الجليد الهش مع دخول فصل الصيف، ولذلك فإن من كان يعيش في هذه المناطق لم يكن يسترهم من الشمس بيتا أو سقفا أو شجرا ، ولذلك قال الله عنهم لم نجعل لهم من دونها سترا) [15]

ويقول الدكتور محمد غلوش (والمكان الذي يتصف بهذه المواصفات هو القطب الشمالي وبالتحديد سيبيريا ، ولم يرد في الآية مشرق الشمس ، لأن الشمس هناك لا تشرق ، وإنما تطلع لمدة ستة أشهر باستمرار دون غروب أو شروق ، ولما كان الليل يستر ضوء الشمس ، وإذ لا يوجد ليل في هذه المنطقة في فصول الصيف ، وإنما هو نهار دائم ، لم يكن لهم من دونها سترا ، وبالتالي لايوجد ستر لهؤلاء الناس يحميهم من اشعه الشمس ليل نهار) [16] .

قوله (..كَذَلِكَ..) أي كما توجّه ذو القرنين بجيوشه نحو مغرب الشمس، كرر صنيعه وارتحل نحو مشرقها). فلم يهدأ له بال، ولم يستقر في ملكه مكتفياً بما حاز، بل ظل يطوف الأرض شرقا وغربا؛ غايته الأسمى نشر دعوة الله وإعلاء كلمته في العالمين. وفي هذا السعي الدؤوب تجسيدٌ حيٌّ لقول رسول الله ﷺ (**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**)[17]

قوله (..وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا..) (91) قيل أن المراد أن الله يعلم نية ذي القرنين من حملاته العسكرية ، وأنه يبتغي منها وجه الله تعالى ولا يبتغي إضافة ملكا لنفسه . وهذا تكريم لذي القرنين بأن الله أحاط بأخباره وعدله وصحيح نيته وإمكانياته العسكرية وقدارته الإدارية ورعايته وحفظه لرعيته

ولذلك قيل أن المعنى تضمن أي (علماً بما عنده ومن معه من الجند والعدة وآلات الحرب)[18]

وقيل معناه (وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من **الصلاحية** بذلك الملك والاستقلال به والقيام بأمره)[19]

---

[13]) تفسير الطبري ج18 ص 99
[14]) تفسير الطبري ج18 ص 100
15) دكتور محمد غلوش : قراءه متأنيه في قصه ذو القرنين وياجوج وماجوج
16) دكتور محمد غلوش : قراءه متأنيه في قصه ذو القرنين وياجوج وماجوج moh.ghalwash@gmail.com
[17])رواه مسلم ج13 ص 164 رقم 4831
18) البغوي ، مختصر تفسير البغوي معالم التنزيل لعبد الله بن أحمد ج5 ص 36

وقال ابن إسحق (وكان من خبر ذي القرنين أنه **أوتي ما لم يؤت غيره، فمدت له الأسباب** حتى انتهى من البلاد إلى مشارق الارض ومغاربها، لا يطأ أرضا إلا سلط على أهلها، حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شئ من الخلق)[20].

فلكل مهمة من مهام الدعوة الرجل المناسب لها ، وذلك مثلما أحاط النبي ﷺ بعلي رضي الله عنه يوم خيبر ، إذ قال النَّبِيُّ ﷺ (يَوْمَ خَيْبَرَ لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى فَغَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ فَقَالَ أَيْنَ عَلِيٌّ فَقِيلَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ فَقَالَ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ **ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ** وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ **فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**) [21].

قوله (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) (92) أي مضي في طريقه ينشر دعوة ربه يمينا ويسارا ، ولا يبالي ، وهكذا يدل التكرار في كل مرة على كثرة سيره في أرض الله واتباع كل السبل لنشر الإسلام بين الناس ، **فلا يحول بينه وبين نشر دعوته سهول ولا جبال ، ولا براكين ولا ثلوج ، فما من أرض فيها أناس إلا وانطلق بحملته لينشر دعوته** ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ)[22]

وهذا ما فهمه صحابة النبي ﷺ ، فبعد وفاته ﷺ إذ انطلقوا في الأرض فخرجوا بأمر من أبي بكر زمن خلافته وعمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان وغيره خارج المدينة المنورة لتدعيم الخلافة الإسلامية وتثبيت أركانها ثم لنشر الدعوة خارج الجزيرة العربية في مصر والقيروان والمغرب حتى بلغوا الأندلس ووسط أفريقيا كما اتجهوا شرقا نحو العراق والفرس (إيران) وجاء من بعدهم فاكملوا المسيرة حتى وصلت الدعوة الإسلامية إلى الهند , وهكذا دفن كثير من الصحابة إن لم يكن أغلبهم خارج المدينة المنورة لا لشيء إلا لأجل إيصال هذه الدعوة المباركة .

ويوضح الجدول التالي أبرز مدافن الصحابة في كثير من الدول العالم المتفرقة

الدولة / المنطقة	اسم الصحابي رضي الله عنه	موقع المدفن والتفاصيل التاريخية
مصر	عمرو بن العاص	دُفن في مقابر المقطم بالقاهرة.
	عقبة بن عامر الجهني	دُفن في قرافة المقطم بالقاهرة.
	عبد الله بن حذافة السهمي	دُفن بالمقطم في القاهرة.
	شهداء فتح البهنسا	تضم مدينة **البهنسا بالمنيا**) بقيع مصر) مدافن نحو 5000 من الصحابة والتابعين.
تونس	أبو زمعة البلوي	دُفن في مدينة القيروان ويُعرف مقامه هناك بـ "سيدي الصحبي."
	أبو لبابة الأنصاري	دُفن في مدينة قابس بجنوب شرق تونس.
الجزائر	شهداء معركة تهودة	دُفن القائد **عقبة بن نافع الفهري**) مختلف في صحبته والراجح أنه تابعي ولد في عهد النبي) رفقة عدد من الصحابة والتابعين (مثل أبي المهاجر دينار) في ولاية بسكرة.
المغرب	سويد بن صامت / الفاتحين الأوائل	دخلها بعض الصحابة والتابعين في السرايا الأولى للفتح، وتوجد مقامات تنسب تاريخياً لتابعين عاصروا الصحابة.

---

[19]) تفسير الخازن ج 4 ص 332
[20]) تفسير القرطبي ج11 ص 45
[21]) رواه البخاري ج10 ص 198 رقم 2787
[22]) رواه مسلم ج10 ص 19 رقم 3533

إسبانيا (الأندلس)	حبان بن أبي جبلة	عاصر كبار الصحابة ودخل الأندلس غازياً، وتشير الروايات إلى دفنه قرب الحدود الأندلسية الفرنسية (قرقشونة.(
القسطنطينية (تركيا)	أبو أيوب الأنصاري	دُفن عند أسوار القسطنطينية (إسطنبول الحالية) خلال حصارها الأول.
بلاد السند (باكستان)	سنان بن سلمة بن المحبق الهذلي	من صغار الصحابة الذين ولدوا في عهد النبي، تولى ثغر السند واستشهد ودُفن في منطقة قصدار (بلوشستان، باكستان).
الهند	عكاشة بن محصن	تذكر الروايات التاريخية في جنوب الهند (تاميل نادو) وفود ودفن صحابة مبكرين لنشر الإسلام عبر التجارة.
السعودية	العشرة المبشرون بالجنة وعموم الصحابة	يضم **بقيع الغرقد** بالمدينة المنورة ومقبرة **المعلاة** بمكة مدافن أمهات المؤمنين وآلاف الصحابة.
الأردن	معاذ بن جبل / أبو عبيدة عامر بن الجراح	دُفنا في أضرحة معروفة في منطقة الأغوار إثر طاعون عمواس.
سوريا	خالد بن الوليد	دُفن في مدينة حمص.
	بلال بن رباح	دُفن في مقبرة الباب الصغير بدمشق.
العراق	سلمان الفارسي / حذيفة بن اليمان	دُفنا في منطقة المدائن قرب بغداد.
قبرص	أم حرام بنت ملحان	توفيت خلال الفتح الإسلامي الأول للجزيرة ودُفنت في مدينة لارنكا.
أوزبكستان	قثم بن العباس بن عبد المطلب	دُفن في مدينة سمرقند (ويعرف مجمعه بـ "شاه زنده").

قوله (حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا)(93) كونهم يعيشون بين سدين هو توصيف لبيئتهم الجغرافية المنعزلة عن الأقوام والأجناس غيرهم حتى انغلقوا على أنفسهم لغويًا وثقافيًا، فباتوا لا يفقهون لسان غيرهم ، مما شكّل جدارًا سميكًا وعائقًا أساسيًا أمام وفود هداية الدعوة إليهم.

ومع ذلك، لم تقف العقبات المادية البحتة حائلًا بين ذي القرنين ومراده، فلم تثنه وعورة السدود، ولا صقيع البيئات الجليدية، ولا ثورات البراكين؛ إذ كان ملكًا رساليًا لا يأبه للمشاق الجغرافية في سبيل غايته، ضاربًا في فجاج الأرض لتبليغ دعوة الله، والوصول إلى أقصى بقاعها نصرةً للحق، وتلمسًا للأفئدة المنهكة والبعيدة عن نور التوحيد ليعالجها وينقذها.

أما تباين الألسن واختلاف اللغات، وإن بدا في ظاهر الأمر عائقًا، فهو عقبة مؤقتة تزول بالتدبر وصادق العزم؛ فرغم أن غياب الفهم المشترك عرقل وتيرة الدعوة في بادئ الأمر، إلا أن ذي القرنين لم يستسلم لهذا الحاجز، ولم يتخذ منه ذريعة لإهمالهم أو التغاضي عنهم. ورغم انعدام الرابط اللغوي، فقد احتال بذكائه وحكمته ليجد سبيلًا للتفاهم معهم رغبةً في نفعهم وإصلاح حالهم. وتلك هي الشيمة الأصيلة للحاكم المؤمن؛ الذي إذا مُكِّن في الأرض، وأُوتي من كل شيء سببًا، استشعر أمانة الاستخلاف في خلق الله؛ إذ لو كان زاهدًا في هدايتهم لوجد في اختلاف اللسان عذرًا سائغًا للرحيل، ولكنه جاهد حتى ابتكر لغة مشتركة للتواصل، قيل (إنها كانت لغة الإشارة والرموز التي يُتفاهم بها مع الأخرس)[23]، لتنتصر إرادة الإصلاح على جفاء العزلة.

23) تفسير الشعراوي ج1 ص 5942

قوله (قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ **مُفْسِدُونَ** فِي الْأَرْضِ) (94) جاء في تسمية يأجوج ومأجوج عدة معاني : فيأجوج **من أجيج النار** ، **ومأجوج من الموج والمج** ، فهو الماء المضطرب شديد الملوحة والذي يمجه من يشربه فلا يستسيغه ، وتلك المعاني جميعا تبين صفاتهم الغليظة المضطربة [24]

فقوله (**يَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ**) [25] أي (يسرعون وينحدرون بكثرة) يوضح هيئة حركتهم المضطربة المائجة كأمواج البحر المتلاطمة التي لا يمكن صدها.

وفي حديث النواص بن سمعان :(فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذَا مَرَّةً مَاءٌ) وجه الدلالة :شربهم لبحيرة كاملة وإهلاكهم للحرث والنسل يشبه تماماً "أجيج النار" التي تأكل كل ما تمر عليه وتتركه رماداً، كما يعكس صفة الغِلظة والجفاف والاندفاع الشديد الذي لا يبقي طعاماً ولا شراباً.

واختلف العلماء هل هم من الجن أم من الإنس ، أم كلاهما علي السواء

فقيل أنهم من نسل آدم ، وقيل هم من الجن وقيل أنهم من الفريقين

والراجح عند الجمهور أنهم من الإنس بدليل أنهم مذكورين ضمن بعث النار مع الإنس في حديث واحد ، والله أعلم بهيأتهم وجنسهم . ، فقد روي عن النبي ﷺ : يَقُولُ اللهُ: يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ قَالَ: يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعثُ النَّارِ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ، تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ ، قَالَ رسول اللهﷺ : (أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوج وَمَأجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ)[26].

كما ورد حديث يدل على نسبهم لنوح عليه السلام ، فعن النبي ﷺ قال(ولد نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك)[27] ، وقد قيل أن يأجوج ومأجوج من طوائف الترك .

وعن عبد الله ابن عمر قال (الجن والإنس عشرة أجزاء ، فتسعة أجزاء الجن ، وجزء واحد الانس ، فإذا ولد ولد من الإنس ولد معه تسعة أجزاء من الجن ، والإنس عشرة أجزاء فتسعة أجزاء يأجوج ومأجوج ، وجزء واحد سائر الناس)[28].

ومن العلم الواجب بيانه في شأنهم أنهم **حين ينسلون لا يقوى أحد على التصدي لهم** – حتى عيسى ابن مريم يتحصن منهم مثل سائر الناس – غير مرض عضال يفتك بهم من عند الله ، وقد عانى هؤلاء القوم من فساد يأجوج ومأجوج كثيرا حتى حجزهم ذو القرنين عن الناس .

وكلام أهل التأويل في تفسير فسادهم أنهم لم يمروا بشيء إلا أفسدوه ، قال الرسول ﷺ **(وهم من كل حدب ينسلون لا يمرون بماء إلا شربوه ولا بشيء إلا أفسدوه)**[29]

وقد ثبت أنهم يقتلون مَن يجدونه من أهل الأرض من البشر. بدليل قول النبي ﷺ عنهم أنهم (يَسِيرُونَ حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى جَبَلِ الْخَمَرِ وَهُوَ جَبَلُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَيَقُولُونَ **لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الْأَرْضِ** هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)[30]

---

24) الشيخ عمر بن عبد الكافي : علامات الساعة الكبرى (خروج يأجوج ومأجوج)
https://www.youtube.com/watch?v=tzwXebYJxLI

25) رواه مسلم ج14 ص 167 رقم 5228

26) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ج1 ص 88

27) رواه الحاكم ج2 ص 595 رقم 4006 وصححه الذهبي وضعفه الألباني

28) كنز العمال ج6 ص 177 ، وهو مخرج في تفسير ابن ابي حاتم ج9 ص 236

29) رواه الحاكم ج4 ص 534 رقم 8502

30) رواه مسلم ج14 ص 167 رقم 5228

ويهلكون الحرث وكل شيء ، فعن النبي ﷺ (يَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ **فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ**)[31] ، كناية عن شراهتهم في الأكل والشرب ، فإذا لم يكفهم شرب ماء البحيرة كلها في مرة واحدة يمرون عليها ، فمن باب أولى لا يكفيهم الطعام على الأرض ، فيهلكون الحرث والنسل .

قوله (فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) (94) هذا العرض منهم لذي القرنين على أن يتفقا على إقامة سد يحجز يأجوج ومأجوج ، وفي مقابله خراج – أي ثمار من الأرض – ، والخراج هو جزء من ثمار الأرض ، وعن ابن عباس (خَرْجًا) (أَجْرًا)[32] على أن يبني لهم سدا يحول بين وصول يأجوج ومأجوج إليهم ، فالمشروع هو بناء سد عظيم ، وفي ذلك تأصيل لقاعدة **الأجر مقابل العمل** ، وذلك حتى لو كانت النيات خالصة لوجه الله الكريم ، إلا أن بذل الطاقة والوسع يستنفذ الطاقات والمدخرات ، فكان **لابد من أجر لتعويض ما ستنفذ ليستمر العطاء** ، قال أبو حيان في ذلك (استدعاء منهم قبول ما يبذلونه مما يعينه على ما طلبوا على جهة حسن الأدب إذ سألوه ذلك كقول موسى للخضر (هل أتبعك على أن تعلمني)[33].

وهو ما يؤصل قاعدة شرعية أخرى وهي أن المستهلك لابد وأن يدفع مقابلا لما يأخذ من سلع مدعمة من الدولة ، فليس معنى أنها مدعمة أن تدفع لهم بالمجان ،وإلا اعتاد الناس البطالة وعدم العمل ، حتى أن نبي الله يوسف كان في عام المحنة يعطي الناس من مخزون القمح مقابل السلع التي يأتون بها ويحسن إليهم في الكيل .

وحسنا فعل هؤلاء القوم أن قدموا له جزءا من الخراج مقابل هذا المشروع العام حتى لا يقعوا تحت المسألة ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ يَكْفُلُ لِي أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا وَأَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ فَقَالَ ثَوْبَانُ "أَنَا" فَكَانَ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا)[34].

في قوله تعالى (فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) تتجلى ملامح وأسس البناء الاقتصادي والشرعي في المجتمعات؛ إذ يلوح العرض السخي من القوم لذي القرنين كمقترح تعاقدي متكامل لإقامة مشروع قومي عظيم يحميهم من طغيان يأجوج ومأجوج وإفسادهم. وقد بذلوا له في مقابل ذلك "الخَرَج" – وهو الأجر أو الجُعل المقتطع من ثمار أرضهم وخيراتهم – تأصيلاً لـ **قاعدة الأجر مقابل العمل**؛ فالنيات وإن خلصت لوجه الله الكريم، إلا أن استدامة العطاء تقتضي تعويض الطاقات المستنزفة والمدخرات الفانية لضمان استمرار البناء والنماء .

وقد لمح الإمام أبو حيان في هذا الطلب لفتة تربوية بارعة، إذ عدّ استفهامهم (فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ) دليلاً على سمو أدبهم في استدعاء قبول ما يبذلونه، وملاطفة في العرض تعين على نيل المراد، تماماً كأدب موسى –عليه السلام– مع الخضر حين قال: (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ)

---

[31]) رواه مسلم ج14 ص 167 رقم 5228
[32]) تفسير الطبري ج18 ص 118
[33]) البحر المحيط ج8 ص 3
[34]) رواه أبو داود ج4 ص 452 رقم 1400 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج 5ص342

ويمتد هذا التأصيل القرآني ليشيد ركيزة اقتصادية وتشريعية بالغة الأهمية ، **إن السلع والخدمات – وإن كانت مدعومة من الدولة – لا ينبغي أن تُنال بالمجان المطلق**؛ فبذل المقابل المادي أو العيني يربأ بالمجتمعات عن الاتكال، ويحمي الأفراد من حبائل البطالة والخمول. وهي ذات الحكمة السياسة والرشادة الاقتصادية التي أدار بها نبي الله يوسف –عليه السلام– سنوات المحنة العجاف، فلم يوزع مخزون القمح هبةً تعطل الإنتاج، بل جعله مبادلةً عادلة بما يعود على بيت المال بالنفع، مع إحسانه لهم في الكيل والوفاء.

لقد أحسن أولئك القوم صنعاً حين بادروا بتقديم جزء من خراجهم لتمويل هذا السد العظيم؛ متحررين بوعيهم من ذل المسألة وعقدة الاتكالية، ومستلهمين – بيقين الفطرة – جوهر التوجيه النبوي الشريف الذي يعلي من شأن التعفف والاستغناء ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ يَكْفُلُ لِي أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا وَأَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ فَقَالَ ثَوْبَانُ "أَنَا" فَكَانَ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا)[35]. فعلي المسلمين أن يكونوا في عزمهم كـ "ثوبان" ، يبتغون حفظ كرامتهم وصون مجتمعهم بجهدهم وأموالهم.

قوله (قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) (95) كان يمكن أن يقول ما مكني فيه ربي كاف ، ولا حاجة لي بقوتكم ، ولكنه يعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فبالرغم من قوة ذي القرنين ، واستعانته بالله تعالى ، إلا أنه طلب منهم المعونة والقوة ، وذلك لعدة أمور منها ، أن الملوك ليست وظيفتهم تعمير الأرض لأهل لا يعملون ، بل على الشعوب التي تأمل أن تتحرر أن تعمل لأجل حريتها ، فالحرية تُستقطع ،ولا تُمنح ، فإذا لم تعمل الشعوب لأجل حريتها فلن يأتي من يحررها ، فالحرية لا تُمنح لأنها حق إنساني ، بل تسترد إذا سلبت ، وليس لأحد أن يمنح للإنسان حريته التي خلقه الله عليها ، فإذا اغتصبت فإنها تؤخذ بالقوة والمجاهدة والعمل لأجل التحرير واستردادها .

وفي قوله (مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ) ملحظ تربويٌّ يُمثّل أصلًا أصيلًا في فلسفة النهوض الحضاري، وسُنَّةً كونيَّةً في استرداد الحقوق وتحرير الشعوب يستوجب أن تقوم بنفخ كير الهمم لتحقيق سُنَّة المدافعة ، إذ لم يكن طلب ذي القرنين الإعانة منهم عجزًا عن البناء، وهو الذي طاف الأرض مشارق ومغارب، وآتاه الله من كل شيء سببًا. بل كان درسًا عبقريًّا في صناعة الإرادة، وإيقاظًا للشعوب المستكينة التي اعتادت العيش في ظلال الاتكالية.

إنَّ المصلحين الصادقين لم يأتوا ليكونوا أجراءَ عند شعبٍ خامل، يَبنون له الصروح وهو مُستلقٍ على قفاه؛ بل جاءوا لِيُعلّموا الأمم كيف تبني مصيرها بيدها. فالشعوب التي تركن إلى الخنوع، وتنتظر "مخلِّصًا" يهبها الحرية بلا ثمن، هي شعوبٌ لا تستحقها؛ لأن الحريَّة فريضةٌ تُستردُّ بالجهاد والمغالبة، وليست منحةً تُرجى في مواكب الصدقات .من أراد أن يتحرر من "يأجوج ومأجوج" العصر، فعليه أن يحمل مع المصلحين زُبَرَ الحديد، وينفخ في كير البناء، ويسكب قِطْر التضحية، فالحقُّ المغتصب لا يعود بالتمني، بل بالعمل والقوة.

إنَّ تحرر الشعوب لا يبدأ بذهاب المستعمر، بل بزوال (القابلية للاستعمار) من نفوس الشعوب، والخروج من مربع العطالة إلى مربع الفاعلية والعمل.

---

[35]) رواه أبو داود ج4 ص 452 رقم 1400 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج 5ص342

والأدلة الشرعية تؤكد أن تغيير الواقع مشروطٌ بحركة الأمة وعملها، وأن القوة هي سياج الحق ، نذكر منها ما يلي :-

قوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم) (الرعد: 11) ، وفي هذا قطعٌ للطريق على المتواكلين؛ فالنصر والتحرر يبدآن من حِراك الذات وتغيير العقلية المستسلمة.

قوله تعالى (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)(الأنفال: 60) ، فالحرية سياجها القوة، وذي القرنين طلب (قوة) الشعب كشريك في الإعداد والتمكين.

يقول النبي ﷺ (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ) [36]، وفي هذا تشريعٌ صريحٌ بأن الحقوق والحرية والكرامة تُفتدى بالأرواح ولا تُطلب استجداءً.

وقد سار على هذا الفهم كثير من العلماء والحكماء والأدباء والمفكرين ، نذكر من أقوالهم :-

يقول ابن عاشور في تفسير قوله: "فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ" إشراكٌ لهم في العمل ليكونوا شُركاء في المصلحة، ولأنَّ العملَ إذا توزَّعتهُ الأيدي خَفَّ مؤونته، وفيه تدريبٌ لهم على الدِّفاع عن أنفسهم لئلا يعتادوا الاتِّكال على غيرهم.

ويقول الإمام ابن قيم الجوزية : "الحقُّ لا بد له من قوةٍ تُظهره وتحميه، وإلا صار ضائعًا كدينٍ بلا سُلطان."

ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟". مؤكدا أن الحرية أصلٌ خِلقي، فإذا سُلبت صار استردادها فريضة.

ويقول الشيخ محمد الغزالي :إنَّ الإسلام لا يعترف بالحرية التي تُعطى هبةً من الملوك أو الرؤساء، إنما يعترف بالحرية التي تنبع من إيمان الفرد بكرامته الإنسانية، ويذود عنها بحياته.

ويقول الأديب مصطفى صادق الرافعي: الحريةُ دمٌ يتدفق في العروق، فإذا جمدت العروق بالخنوع، لم يملك أحدٌ أن يصبَّ فيها الحرية من خارجها.

وقد استشهد السنوار قبل موته ببيت شعر لأحمد شوقي قائلا : -

وَلِلْحُرِّيَّةِ الْحَمْرَاءِ بَابٌ... بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

يرسخ أحمد شوقي حقيقة أزلية تخاطب كبرياء الشعوب ونضالها؛ ومفادها أن الحرية والاستقلال لا يُمنحان كهدية، ولا يُنالان بالتمني أو بالأساليب السلمية الواهنة، بل ثمنهما باهظ لا بد من دفعه من دماء الأحرار وتضحياتهم.

وقد وصَفَ الشاعر الحرية باللون "الأحمر" في استعارة موحية ومزلزلة؛ ليدل على أن طريق الانعتاق من قيود الظلم والاستعمار معبّد بالدماء الزكية، فالحرية لا تكتسي ثوبها الأبيض الناصع إلا بعد أن تمر بمرحلة الفداء والتضحية بالنفوس.

---

[36]) رواه الترمذي

وفي قوله "بكل يدٍ مضرجةٍ يُدقّ" :يصور الشاعر الحرية وكأنها قصر منيع مغلق، له باب ضخم لا يمكن فتحه أو ولوجه إلا عبر التضحية. والمفتاح الوحيد لهذا الباب ليس الكلمات أو الوعود، بل هو "الأيدي المضرجة" أي الأيدي الملطخة بالدماء التي تضرب الباب وتدقه حتى ينكسر ويفتح ، فالباب يفتح نتيجة الناتجة للكفاح والمقاومة ضد الظالم. ولو كانت طرقات بأيدي ملطخة بالدماء منهكة من الضعف .

قوله (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) (96) هنا يظهر دور العلم في إقامة السد الذي حما البشرية من شر هؤلاء القوم طيلة قرون من الزمان ، باختراع سبيكة معدنية مصهورة من النحاس والحديد المذاب ، ليتكون الفولاذ ليصير السد صلدًا لا يُنقب، ومصقولًا أملسَ لا يُرتقى.



قَوْلِهِ (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ) وَاحِدُهَا زُبْرَةٌ وَهِيَ الْقِطَعُ (حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ " الصَّدَفَيْنِ ":"الْجَبَلَيْنِ"

قوله (قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا)أَصْبُبْ عَلَيْهِ رَصَاصًا وَيُقَالُ الْحَدِيدُ وَيُقَالُ الصُّفْرُ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ النُّحَاسُ)[37] .

قوله (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) (97) قال البخاري في قوله (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ) أي يَعْلُوهُ اسْتَطَاعَ اسْتَفْعَلَ مِنْ أَطَعْتُ لَهُ فَلِذَلِكَ فُتِحَ أَسْطَاعَ يَسْطِيعُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ اسْتَطَاعَ يَسْتَطِيعُ)[38]

وعَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي السَّدِّ قَالَ (يَحْفِرُونَهُ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى إِذَا كَادُوا يَخْرِقُونَهُ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ ارْجِعُوا فَسَتَخْرِقُونَهُ غَدًا فَيُعِيدُهُ اللَّهُ كَأَشَدِّ مَا كَانَ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مُدَّتَهُمْ وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ ارْجِعُوا فَسَتَخْرِقُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَاسْتَثْنَى قَالَ فَيَرْجِعُونَ فَيَجِدُونَهُ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ فَيَخْرِقُونَهُ فَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ فَيَسْتَقُونَ الْمِيَاهَ وَيَفِرُّ النَّاسُ مِنْهُمْ فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ فِي السَّمَاءِ فَتَرْجِعُ مُخَضَّبَةً بِالدِّمَاءِ فَيَقُولُونَ قَهَرْنَا مَنْ فِي الْأَرْضِ وَعَلَوْنَا مَنْ فِي السَّمَاءِ قَسْوَةً وَعُلُوًّا فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَغَفًا فِي أَقْفَائِهِمْ فَيَهْلِكُونَ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ تَسْمَنُ وَتَبْطَرُ وَتَشْكَرُ شَكَرًا مِنْ لُحُومِهِمْ)[39]

---

[37]) تفسير الطبري ج18 ص 118
[38]) رواه البخاري ج11 ص 132
[39]) رواه الترمذي ج10 ص 428 رقم 3078

قوله (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي) أي أن هذا السد والردم الذي على يأجوج ومأجوج منع كثير من الشر أن يؤذي الناس ، روي أن النَّبِيِّ ﷺ اسْتَيْقَظَ مِنْ النَّوْمِ مُحْمَرًّا وَجْهُهُ يَقُولُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ وَعَقَدَ سُفْيَانُ تِسْعِينَ أَوْ مِائَةً قِيلَ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ)[40]

وعن زَيْنَبَ ابْنَةِ جَحْشٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ (دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمأجُوجَ مِثْلُ هذِهِ وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا قَالَتْ زَيْنَبُ ابْنةُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ: نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ)[41]

قال العلماء (وإنما خص العرب بالذكر لأنهم أول من دخل في الإسلام والإنذار بأن الفتن إذا وقعت كان الهلاك إليهم أسرع)[42]، (والمراد بالشر ما وقع بعده من قتل عثمان ثم توالت الفتن حتى صارت العرب بين الأمم كالقصعة بين الأكلة كما وقع في الحديث الآخر يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها) [43] ، أي أن مقتل عثمان أول فتنتهم , وخروج يأجوج ومأجوج آخر فتنتهم ، وبين الفتنتين تتوالى المصائب والنوازل ، لكن من رحمة الله تعالى أن جعل فتنة يأجوج ومأجوج آخر الزمان وكعلامة من علامات الساعة الكبرى .

قوله (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) (98) جعله دكاء قال البخاري (أَلْزَقَهُ بِالْأَرْضِ)[44]، أي هُدِم السد وسوي بالأرض ، قال الطبري (يقول: فإذا جاء وعد ربي الذي جعله ميقاتا لظهور هذه الأمة وخروجها من وراء هذا الردم لهم ، جعله دكاء، يقول: سواه بالأرض)[45] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (تفتح يأجوج و مأجوج يخرجون على الناس كما قال الله تعالى : (من كل حدب ينسلون) فيبعثون في الأرض **وينحاز المسلمون إلى مدائنهم وحصونهم** ويضمون إليهم مواشيهم ، ويشربون مياه الأرض حتى أن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يابسا حتى أن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول لقد كان هاهنا ماء مرة **حتى إذا لم يبق من الناس أحد** إلا أخذ في حصن أو مدينة قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقي أهل السماء قال : ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمي بها إلى السماء فترجع مخضبة دما للبلاء و الفتنة فينما هم على ذلك **بعث الله عليهم دودا في أعناقهم** كالنغف فيخرج في أعناقهم فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس فيقول المسلمون : ألا رجل يشري لنا بنفسه فينظر ما فعل هذا العدو قال : ثم يتجرد رجل منهم لذلك محتسبا بنفسه قد وطنها بنفسه على أنه مقتول فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض فينادي : يا **معشر المسلمين أبشروا فإن الله قد كفاكم عدوكم فيخرجون من مدائنهم و حصونهم ويسرحون مواشيهم** فما يكون لها رعي إلا لحومهم فتشكر عنه كأحسن ما شكرت عن شيء من نبات أصابته قط)[46]

---

[40]) رواه البخاري ج21 ص 449 رقم 6535
[41]) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ج1 ص 908
[42]) فتح الباري لابن حجر ج13 ص 11 ، عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج35 ص 115
[43]) فتح الباري لابن حجر ج13 ص 107
[44]) تفسير الطبري ج18 ص 118
[45]) تفسير الطبري ج18 ص 118
[46]) رواه الحاكم ج4 ص 535 رقم 8504

قال تعالى (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (102) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106)

قوله (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) (98) ارتباط ظهور قوم يأجوج ومأجوج بوعد الله هو إظهار لآياته آخر الزمان بعد أن يكذب الناس بالله وآياته ورسله ، فيظهر لهم مثل هذه الآيات ليؤوب الناس إلى الإيمان بالله تعالى بعد أن أخبر عنها القرآن من آلاف السنين ، فإذا رأوها حري بهم أن يؤمنوا بعد أن عُزلوا عن البلاغ وصدوا عن السبيل ، كهؤلاء القوم الذين لا يفقهون قولا ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ وَيَنْقُصُ الْعَمَلُ وَيُلْقَى الشُّحُّ وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّمَ هُوَ قَالَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ)[47]، وقيل (**يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ولا يبقى من القرآن إلا رسمه ، مساجدهم عامرة ، وهي خراب من الهدى**) [48]

وبالرغم من كل **هذه الفتن فإنها تمر ويسلم منها أهل الحق** ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ **الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ**)[49] ، كما أخبر النبي ﷺ أنه بعد فتنة يأجوج ومأجوج سوف تعود الحياة إلى سابق عهدها ، وسوف يخرج الناس للحج ،وهم في أمن وأمان ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (**لَيُحَجَّنَّ الْبَيْتُ وَلَيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ**)[50] .

قوله (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ) (99) قيل يختلط العالمان الإنس بالجن ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ،" وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ" ، قَالَ: الجِنّ والإِنْس، يموج بعضهم في بعض[51]، قال الزمخشري (أي يضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى ، ويجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج ، وأنهم يموجون حين يخرجون من وراء السدّ مزدحمين في البلاد ، وروي : يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ، ثم يأكلون الشجر ، ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس ، ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ، ثم يبعث الله نغفاً في أقفائهم فيدخل في آذانهم فيموتون)[52].

---

[47]) رواه البخاري ج21 ص 452 رقم 6537
[48]) ضعفه الألباني في : مشكاة المصابيح ج1 ص 59 رقم 279 السلسلة الضعيفة ج4ص410
[49]) رواه الترمذي ج8 ص 215 رقم 2186 وصححه الألباني صحيح الترمذي ج 5 ص 260 رقم 2260
[50]) رواه البخاري ج6 ص 8 رقم 1490
[51]) تفسير ابن ابي حاتم ج9 ص 241
[52]) الكشاف ج4 ص 53

والحديث يشير **إلى قوة زخم يأجوج ومأجوج** حتى أن عيسى ابن مريم الذي يمكنه الله من قتل الدجال لا يقدر عليهم بل يتحصن منهم مثل سائر الناس

فعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ ، وذكر أن عيسى ابن مريم سوف يَقْتُلُهُ ، ثم قال (يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمْ اللَّهُ مِنْهُ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى **إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ** ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ – ثُمَّ يَسِيرُونَ حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى جَبَلِ الْخَمَرِ وَهُوَ جَبَلُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَيَقُولُونَ لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الْأَرْضِ هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّمَاءِ فَيَرْمُونَ بِنُشَّابِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرُدُّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نُشَّابَهُمْ مَخْضُوبَةً دَمًا [53]– **وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ** حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ **فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ** نَفْسٍ وَاحِدَةٍ **ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ** فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ **ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ** فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنْ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنْ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنْ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنْ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنْ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنْ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنْ النَّاسِ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ) وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ حُجْرٍ فَإِنِّي قَدْ أَنْزَلْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَيْ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ)[54] .

قوله (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا) (99) ناسب ذكر الساعة وعلامة قيامها بعد ذكر خروج يأجوج ومأجوج باعتبار خروجهم بعد خروج الدخال من آخر علامات الساعة الكبرى ، وبعدها ينفخ في الصور نفخة الصعقة قال تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) (الزمر/68) أي أن هناك نفخة أخرى بعد نفخة الصعق ، وهي نفخة البعث ، ثم يجمع الناس جمعا

قال ابن عاشور (في هذا **تخلص من أغراض الاعتبار بما في القصة من إقامة المصالح في الدنيا على أيدي من اختاره الله لإقامتها من خاصة أوليائه إلى غرض التذكير بالموعظة بأحوال الآخرة)** [55]

قوله (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا) (100) أخبر النبي ﷺ أن أكثر بعث النار من قوم يأجوج ومأجوج وليس بني آدم ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَا آدَمُ فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ قَالَ **وَمَا بَعْثُ النَّارِ** قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ **(وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)** قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ قَالَ أَبْشِرُوا **فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا** ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا

---

53) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ بِهَذَا الْإِسْنَادِ نَحْوَ مَا ذَكَرْنَا وَزَادَ بَعْدَ قَوْلِهِ (لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ)

54) رواه مسلم ج14 ص 167 رقم 5228

55) التحرير والتنوير ج15 ص 138

فَقَالَ أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا فَقَالَ أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا فَقَالَ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ)[56] .

قوله (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) (101) ونظير ذلك قوله تعالى: (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُون) (هود) ، قال الرازي (والمراد منه شدة انصرافهم عن قبول الحق)[57] ، قال القاسمي وفي ذلك (تمثيل لتعاميهم عن الآيات الدالة على توحيده ، أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها ، ولتصامّهم عن الحق واتباع الهدى)[58] .

قوله (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا) (102) يقرع العقول بإنكار توبيخي حاسم؛ فكيف يظن الجاحدون أن المربوبين يصلحون أربابًا؟ إن كل ما عُبد من دون الله — ملائكةً كانوا كرامًا، أو أنبياء كعيسى عليه السلام، أو شياطين مضلين، أو حتى شهوات وأنفسًا أمارة — ليسوا سوى عباد خاضعين لقهره، لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًا. لقد عقد المشركون لواء الولاية لسراب زائل، واستمسكوا بخيوط واهية من دون حبل الله المتين

ويصور السياق مآل هذا الاستمساك الواهي؛ فبينما هم يتشبثون بـ "حبال" غير الله، تندفع جهنم تحتهم كهاوية سحيقة لا قرار لها، أُعدت خصيصًا لتهوي بكل من اتخذ غير الله وليًا. وفي لحظة السقوط، تنقطع تلك الحبال الزائفة، ولا يبقى إلا حبل الله الذي نبذوه، فيتردون في قعر الحفرة بلا ناصر ولا مجير. ويأتي قوله تعالى "نُزُلًا" بتهكم إلهي لاذع؛ إذ جعل جهنم — وهي دار العذاب المقيم — بمثابة "الضيافة الأولى" التي يتلقاها القادمون، ليكون أول طعامهم وشرابهم ومنزلهم هو النار .

هذا المشهد التصويري ليس مجرد وعيد، بل هو تمهيد محكم للرد على مجادلي أهل الكتاب وخصوم الدعوة الذين نزلت السورة لدحض شبهاتهم، فجاءت الآية لتقطع دابر جدلهم وتكشف زيف معتقداتهم قبل تفصيل محاججتهم .

قوله (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) (104) في ذلك توبيخ للضالين من أهل الكتاب الذي اتخذوا الجدال مع النبي ﷺ منهجا عند محاورته ، فلم ينصاعوا للحق ، بل أعموا أنفسهم عنه

فعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ سَأَلْتُ أَبِي " قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا" هُمْ الْحَرُورِيَّةُ قَالَ لَا ، هُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى أَمَّا الْيَهُودُ فَكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ وَأَمَّا النَّصَارَى فَكَفَرُوا بِالْجَنَّةِ وَقَالُوا لَا طَعَامَ فِيهَا وَلَا شَرَابَ ، وَالْحَرُورِيَّةُ (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ) وَكَانَ سَعْدٌ يُسَمِّيهِمْ الْفَاسِقِينَ)[59] ، وفي رواية عن مصعب قال (لا ولكنهم أصحاب الصوامع ، والحرورية قوم زاغوا فأزاغ الله قلوبهم)[60] ، وعن علي (هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع)[61] .

---

[56]) رواه البخاري ج11 ص 135 رقم 3099
[57]) تفسير الفخر الرازي ج1 صث 2948
[58]) محاسن التأويل : تفسير القاسمي
[59]) رواه البخاري ج14 ص 353 رقم 4359
[60]) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 401 رقم 3400
[61]) تفسير الطبري ج18 ص 126

قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) (105) تمتد جذور اللفظ اللغوي لـ "الحبوط" لتكشف عن صورة حسية بالغة العمق؛ فهو في أصله "انتفاخ بطن الدابة وتهلكتها حين تسرف في الرعي وتفرط في التضلع من مرعى وبيل"[62]، وهو التوصيف الذي استلهمه صاحب الظلال ليرسم به مآل تلك الإنجازات الدنيوية الجوفاء التي تنتفخ في عيون أصحابها وراء سراب النجاح الزائف، قبل أن تنتهي إلى بوار مطلق وعقم دميم. [63]

هذا التشبيه البليغ يختزل مشهد النهم المادي وسعار الشهوات الذي يستبد بهؤلاء في دنياهم، حتّى كأنهم في لهثهم وراء المتعة الفانية يُحاكون جموح يأجوج ومأجوج في الأرض، إذ حرموا أنفسهم من سكينة "غنى النفس" التي يفيء إليها قلب المؤمن بربه، وتأتي النبوءة المحمدية لتكمل ملامح هذا المشهد التهكمي المروع، حيث يخبرنا الرسول ﷺ أنه (ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة) وَقَالَ اقْرَءُوا (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) [64]. محيلاً ذلك التضخم الجسدي والدنيوي الزائف إلى هباء لا قيمة له ولا وزن.

وفي قوله (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا) (106) جاء ذكر هذا الجزاء تعليلاً عادلاً لما أسلفوه في دنياهم من استكبار واستهزاء؛ فلم تكن مجادلتهم للنبي ﷺ ولآيات الله يوماً طلباً للهداية أو استجلاءً للحقيقة، وإنما كانت محض سخرية ومراء، بعد أن أعمى الطمع قلوبهم، وغدت الدنيا هي شغلهم الشاغل، وغايتهم التي لا غاية وراءها، فحق عليهم العقاب من جنس العمل.

---

[62]) انظر الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ج19 ص 193
[63]) في ظلال القرآن ج5 ص 83
[64]) رواه البخاري ج14 ص 355 رقم 4360